أهم الأخبار

|

على سبيل التقديم... تطلعات بشرية للأستاذ عبد الله شرف الدين

د. أحمد إبراهيم الفقيه | 06/03/2017 على الساعة 09:53

الاستاذ عبدالله شرف الدين اثناء جلسة حوار اجرته الاستاذة فاطمة الغندور لصالح ليبيا المستقبل

(هذه كلمة التقديم التي سالني الاستاذ الكبير عبد الله شرف الدين ان اقدم بها كتابا صغيرا من تأليفه اسماه تطلعات بشرية، يحتوى بعض افكاره ورؤاه التي استمدها من تجربة السنين، لتكون وصيته للأجيال القادمة، رأيت ان انشرها استباقا لنشر الكتاب نفسه الذي سيكون بين يدي القراء قريبا).

***

هذا كراس صغير يقدم فيه الأستاذ عبد الله شرف الدين رجل القانون والدفاع عن حقوق الإنسان، بعض رؤاه الإنسانية التي يريد ان يسهم بها في تحسين وتطوير الشرط الإنساني، مستمدا هذه الرؤى من عمق تجربته الطويلة العريضة التي امتدت على مدى عمره المديد وقد تجاوز الان العقد التاسع من عمره (مواليد 1924) وقبل ان أمضى مع تعليقي على هذه الافكار والرؤى أحب ان استهل حديثي الى القاريء بهذه الاسطر التي

كتبتها عندما اصدر سيرته الذاتية في كتاب صغير قلت في مقال عن الكتاب أصف الاحساس الذي روادني وانا اقرأ سيرته:

((من دواعي استمتاعي بقراءة هذه المذكرات التي كتبها علم من أعلام ليبيا في القانون والمحاماه هو الاستاذ المناضل السياسي ونقيب المحامين الليبيين ورئيس الجمعية الدولية لمكافحة العنصرية، عبد الله شرف الدين، انني أعرف كاتبها معرفة وثيقة، وتربطني به صداقة قديمة عميقة، وعاصرته في بعض فصول حياته ونضاله، واثق ثقة كاملة في شهادته، وأعرف مدى صدقه وأمانته في نقل هذه الوقائع والاحداث التي عاصرها والمنازلات والمعارك التي كان طرفا فيها، واستطيع ان أقول ان الدرس الذي يمكن الخروج به من هذه المذكرات انه يمكن للإنسان ان يعيش حياة كريمة وان يؤمن لاسرته مستوى راقيا من المعيشة، وان يستطيع توفير أرقى أنواع التعليم لأولاده وبناته، دون ان يقدم التنازلات التي نرى اناسا كثيرين يقدمونها في سبيل الاحتفاظ بالمستوى المعيشي الراقي، بل هناك من يفرط في شيء من كرامته ومن عزة نفسه متذرعا بانه يفعل ذلك لان وراءه أبناء وبنات يريد ان يضمن لهم الحياة الكريمة وان يوصلهم أعلى مراحل التعليم، أقول ان صاحب هذه المذكرات لم يولد وفي فمه ملعقة من ذهب، بل ولد في بيت أسرة من عائلات طرابلس الكريمة، تكسب قوتها بعرق جبينها، و لم يجد في انتظاره البساط الاحمر ليمشي فوقه الى النجاح والجاه والنفوذ، وانما بدأ حياته كادحا واضطر ان يعمل عاملا في مشغل للانوال قبل ان يكمل تعليمه المتوسط، وبالكدح والكفاح والعمل لتوفير مصاريف الدراسة واصل التعليم، وخاض ملحمة صراع ونضال من أجل ان يكمل تعليمه، وفعلا تحصل على الاجازة في الحقوق من القاهرة، وعاد في منتصف الخمسينيات ليبدأ الحياة العملية في مجتمع يفتح احضانه للمتعلمين، خاصة من أكمل تعليمه الجامعي، وكان بامكانه ان يتبوأ أعلى المراكز الحكومية، ولكنه رفض المراكز العالية اذا كانت ستأتي عن طريق المهادنة وتقديم التنازلات، سار وراء قناعته، تقوده المباديء التي يؤمن بها، مضحيا بالمصلحة الشخصية في سبيل المصلحة الوطنية، وبالجاه والنفوذ والمال اذا كان على حساب المبدأ، رغم ان هذا المبدأ قد لا يكون بالضرورة هو الصواب، بل انه يقول انه في مراحل متقدمة من العمر تغيرت قناعات لديه وافكار، ولكنه لا يندم لتلك المصالح او الاموال التي ضاعت، بسبب تغليبه لذلك المبدأ او لتلك الفكرة التي يراها اليوم فكرة يجانبها الصواب، بل لا يندم على أيام من العمر قضاها في السجن او في المنفي، لانه رأى ان الفكرة التي امن بها تستحق هذه التضحية، وقد اعتمد في حياته كما يقول مقولة بسيطة تعلمها من إمرأة أمية هي والدته تقول الحكمة التي ترددها تلك الوالدة، انه اذا كان الكذب يجلب النجاة أحيانا، فان الصدق يجلب النجاة في كل الاوقات ولهذا فلا نجاة الا بالصدق وقول الصدق واعتماد الصدق منهجا للحياة. وهذا الصدق انجاه دائما، وانجاه حقا، وكان ثمة مهالك ومخاطر تعرض لها، واهوال عاشها، واعداء شرسون تربصوا به الدوائر، وكان هذا الشعار ينفع بالتأكيد في الازمنة العادية، ومع البشر العاديين، ولكن هل يستطيع هذا الشعار الذي يطالب الانسان بقول الصدق دائما ويضمن له النجاه، ان يكون صالحا حتى

في الاوقات الاستثنائية، اوقات الاحتراب او المواجهات الساخنة، وهل يكون صالحا في التعامل مع البشر الذين نسوا بشريتهم، طغاة مثل الطاغية الليبي، الذي كان كائنا له أنياب زرقاء يفترس بها ضحاياه، هذا هو الاختبار الكبير، والامتحان العسير، والغريب العجيب ان صاحب المذكرات استطاع ان يعتمد الصدق حتى في هذه الازمنة، ومع هذا الوحش البشري، والأعجب والأغرب انه استطاع النجاة حقا)).

هذه أسطر رأيت ضرورة ان أعيد تذكير القاريء بها لانها تلقي ضوءا على صاحب هذا الكراس الذي اسماه تطلعات بشرية، والذي يتضمن رسالته الى اخوته من أبناء الجنس البشري عامة واخوته في بلده ليبيا واقطار الوطن العربي جميعا، لانهم الاولى بمراعاة ما يقوله استجابة لدينهم، وتحقيقا للنهضة المنشودة التي ينشدها أبناء هذا الوطن بعد ان تأخروا لاسباب خارجة عن ارادتهم، وتتصل بالهيمنة الاجنبية على مقدراتهم، وسنوات الكفاح ضد الغزاة والمستعمرين، فانقطعوا عن مواصلة التدرج الحضاري الذي كانوا صانعي بداياته، ومؤسسي مراحله الاولى، عندما انشأوا دولتهم العربية الاسلامية، التي اشعت بحضارتها وفتوحاتها في العلوم والاداب والفنون على مشارق الارض ومغاربها.

ولم يطلق علي هذه الافكار والرؤى، تطلعات بشرية، إلا لانها في خاتمة المطاف، أفكار تهم الإنسان عامة، ولانها تتصل بقضايا مشتركة بين كافة أهل الأرض، مثل قضية السلام ومحاربة العنصرية وتحقيق الاخاء الانساني، وانتهاء الصراع المدمر بين الامم والشعوب، مقترحا من الافكار ما يمكن ان يسهم في خلق بيئة أكثر رحابة وعدلا وجمالا، تليق بمجد الانسان في عصرنا الحديث، عصر الفتوحات العلمية التي يشيد بها

اشادة الفخر والامتنان لاصحاب الفضل في انجازها، ويقول انها بلغت في العقود الاخيرة حدا غير مسبوق في كامل التاريخ البشري، وليس فقط في مستواها المتفوق، ولكن في غزارتها وتواترها، بل جاءت كانها الغمر اوفيوض الخير والبركة والحضارة، بحيث تحقق في قرن من الزمان هو آخر مائة عام، أضعاف ما تحقق فيما سبق من عمر الانسان في الكرة الارضية.

وكما قلت في أسطر الاستهلال للاستاذ شرف الدين مداخلاته واسهاماته، التي لم تقتصر فقط على كتاب السيرة الذاتيه له ولعائلته، وانما شارك في رسم طريق الامن والخير والعدل والسلام للانسانية في اوراق كثيرة قدمها لمنتديات وطنية واقليمية ودولية وتركزت جهوده منذ منتصف السبعينيات في الجمعية الدولية المعادية لكل انواع التفرقة العنصرية، وجاء هذا الكراس ليتضمن خلاصة الخلاصة في تطلعاته التي يريدها لانسان هذا العصر، مستعرضا عددا منها، مستهلا حديثه منذ ان بدا الكائن البشري مسيرته من خلية أولى خلقها الله هي (الأميبا) "التي انشأها الخالق في المياه الراكدة والتي تطورت في ملايين الملايين من الاجيال والاحقاب في سلسلة مذهلة عجيبة من الصراع في سبيل الحياة، كما نوهت الى ذلك واشارت اليه الكتب السماوية" ولن أعيد استعراض الافكار التي احتواها الكراس، فهي كثيرة متنوعة تستهدف خير الانسان، إلا ان الكاتب مهما ارتقت نظرته في مدارج الصعود الى أعلى مراتب الانسانية، ومهما اتسع أفق تطلعاته، لن يستطيع ان يتحرر من قيود المكان والزمان، فهو ابن عصره، وابن بيئته، وابن ظروف المكان الذي نشأ فيه، وارتبط بمشاكله، وعاش في حالة اشتباك نضالي مدافعا عنه، ضد عوامل التخلف وقوى الهيمنة، فهو بكل ما يحتويه عقله الكبير ووجدانه الرحب من احتضان للانسانية، يظل مشدودا الى بعض قضايا منطقته العربية واوصابها ونوائبها التي يراها دائما بمنظار عربي مثل نظرته لاسرائيل، واحتلالها لأرض عربية هي فلسطين، ونظرته لجيش الاحتلال الامريكي اثناء غزوه للعراق وما ترتب على هذا الغزو من كوارث عاشها الشعب العراقي، ولابد ان اخرين في العالم لا يشاركونه هذه الرؤى الخاصة بوطنه وقضايا امته، مع انهم بالتاكيد يتفقون معه في قضايا اخرى تهم انتشار الامن والعدل في العالم وانتهاء الحروب وتحرير الكرة الأرضية من المخاطر التي تهدد سلامتها وعافيتها.

وبدلا من مواكبة واستعراض كل القضايا التي قاربها المؤلف في هذا الكراس، فانني سانتقي قضية واحدة اساسية من القضايا التي عالجها الاستاذ عبد الله شرف الدين، لاشرح انطباعي حولها، ولن اكتفي بعرضها واستجلاء جوانبها وانما سأسعى للذهاب بها خطوة أبعد مما ذهب اليه أستاذنا شرف الدين، فيما اريده ان يكون

اضافة لافكاره واغناء لها واثراء لما اقترحه بعقله المحب للسلام والحاني على مشاكل البشر وحل هذه المشاكل.

هذه القضية التي اجد نفسي منجذبا الى الحديث عنها، قبل غيرها، واثارها الاستاذ شرف الدين في كراسه هذا، هي قضية السباق من أجل انتاج وبيع وانتشار السلاح في العالم، حيث يقول في مستهل حديثه عن هذا الموضوع، "وأشدّ هذه المعوّقات التي نشاهدها في هذه السنوات هي هذا الصراع الدموي الذي انتشر بين البشر في كل بقاع الأرض، واصبح هذا السلاح الناري المنتشر في كل أرجاء المعمورة من مسدسات وبنادق ورشاشات، ثم المدافع والصواريخ والدبابات والقنابل والمتفجرات بجميع انواعها، نقول اصبح هو الوسيلة للتفاهم حتى بين الاخ واخيه، كأن البشرية قد فقدت عقلها ووسائل تمييزها، ولا حول ولا قوة الا بالله، وقد حاول الكثير مما يتألمون لهذه الأوضاع شبه المجنونة أن يوقظوا جوانب الخير والصلاح في اخوانهم بني البشر، وقد ساهم العبد لله في هذا السبيل بالإلقاء كلمة بالخصوص في مؤسسة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة والتي تجتمع بجنيف كل سنة، لعله من الاوفق نشرها من جديد، ومن يدري ربما مثل هذا النداء او الصراخ يوقظ الجانب الانساني في بني البشر، ولكن هل افاد فعلا هذا النداء، او المحاولات المتعددة بالخصوص من بعض العقلاء في هذه الارض؟؟!!، لا أظن ذلك، ولكن لا بدّ على اي حال من الإستمرار بمثل هذه المحاولات". ويضيف قائلا بان هناك ألف مليار دولار ينفقها العالم سنويا في صناعة السلاح وتجارته واستعماله في سفك دماء البشر هنا وهناك من أرجاء الأرض.

ويقترح في خطاب اخر القاه في نفس المنتدى منذ العام 2002 إيقاف هذا السباق المدمر المجنون لتصنيع واقتناء السلاح والمتاجرة به ويقتبس قولا للرئيس الامريكي دوايت ايزنهاور يقول فيه "ان كل مدفع أخرجته المصانع، وكل دبابة جرت على الأرض، وكل صاروخ أطلق في السماء، هو في المعنى النهائي السرقة الأكيدة من الجائعين الذين لا يجدون طعاما، ومن العرايا الذين لا يجدون ما يقيهم برد الصقيع. ان هذا العالم الغارق في صناعة السلاح لا يبدد أموالا فقط، انه يبدد عرق العمال وعبقرية العلماء، وامال أطفال المستقبل".

مع ان الكاتب في كامل هذا الكراس وربما في كل موضوع قاربه يريد به خير البشرية وايقاف اجواء الحرب والهيمنة ثم سباق التسلح، انما يتجه باللوم لامريكا قبل غيرها، باعتبارها هي القوة الأعظم في العالم، وهي

التي بدل ان تسخر هذه القوة للخير ومنع الأذى، تفعل العكس، عندما تذكي حمى الصراع، وتدفع البشرية باتجاه الحرب بدل السلام، وتمارس الهيمنة والاحتواء، بدل الحرص على قيم الخير والاخوة الانسانية.

واذا كان الكراس توخيا لخير البشرية، واملا في احلال السلام في العالم، ورغبة في خلق بيئة اكثر جمالا وبهاء وانسانية وحضارة تليق بقيمة الانسان ووجوده، قد ارسل دعوته لنبذ سباق التسلح، والحد من استخدامه، واحلال معاني السلام بدل الحرب، والتفاهم بدل الصراع المسلح، وحل المشاكل بالعدل والقانون بدل اللجوء للقوة، فانني هنا اريد ان ادفع بهذه الدعوة خطوة الى الامام، واضع امام هيئة الامم المتحدة اقتراحا بالغاء كافة انواع السلاح، ليس فقط السلاح النووي، والاسلحة الكيماوية، والجرثومية، وانما كافة الاسلحة المستخدمة الان في ايدى الجيوش، من مدافع، وطائرات مقاتلة، وبوارج حربية، وغواصات، ومتفجرات، والغام، بل والاسلحة الخفيفة مثل المسدسات والبنادق، وتقف بالتالي كل مصانع السلاح عن صنعه، ويتم تدمير اسلحة الدمار الشامل تدميرا كاملا من كل العالم، ولا تبقى إلا كمية محدودة فقط، بل وتلغى الجيوش ووزارات الدفاع، إلا في وحدات رمزية، ويكون البديل لهذه الجيوش وهذه الترسانات من السلاح، مواثيق شرف بين اقطار العالم، يتم الالتزام بتنفيذها ومراعاتها، قوامها عدم الاعتداء، ومراعاة حسن الجوار، وتلعب الأمم المتحدة بهيئاتها القضائية والعدلية ومجالسها للأمن والسلام وهيئتها العمومية دور الحامي والراعي والملتزم بحماية القطر او الشعب او الدولة التي تتعرض لاي اعتداء، ومن المعلوم ان العالم سيحتاج الى سلاح ضد عصابات الاجرام المنظم، وضد الخارجين على القانون، وضد جماعات الارهاب والتطرف، وهذا السلاح يجب ان يكون موجودا، ولكنه سيبقى في شكله المحدود، الكافي لردع الاجرام، وسيكون احتكارا خالصا، لهيئة الأمم المتحدة وحدها، التي سيكون لها وحدات تدخل سريع في كل منطقة من العالم، ونقاط موزعة بين اقطاره لحفظ السلام ومنع الجريمة المنظمة، وسيتم تنظيم حفظ الأمن ومكافحة الجريمة بين فرق أمن محلية وبين هذه الوحدات التابعة لهيئة الأمم المتحدة.

ادرك ان هناك من يرى مثل هذه الفكرة، فكرة خيالية، ولكن ما افقر العالم، وما افقر الفكر الانساني، اذا خلا العالم من الخيال، وقد كان المفكر والفيلسوف والاديب برتراند راسل حامل جائزة نوبل للآداب، الذي استحق عن جدارة فيلسوف السلام، قد اقترح فكرة الحكومة العالمية، لانه كان معنيا بقضايا الحرب والسلام، ويرى ان مثل هذه الحكومة قادرة لوحدها على فرض السلام، وقدم افكاره في رؤية مفصلة، وتصور عملي، ومع ذلك اتهمت افكاره بالطوباوية، وكان يقدم فكرة الحكومة العالمية كبديل لهيئة الأمم المتحدة، ولكننا هنا وتجاوزا

للمعوقات التي حالت دون تطبيق افكار برتراند راسل وغيره من مفكري السلام ودعاة الحكومة العالمية، نعهد بدور للأمم المتحدة في هذه القضية بالذات، التي تلغي السلاح من العالم، لان الأمم المتحده في هذا الدور لن تحتاج لواحد من مائة من السلاح الموجود في العالم، ولن تكون هناك حاجة لصرف هذا المبلغ المهول وهو الف مليار دولار كل عام على التسليح (ولعله تضاعف في الاعوام الاخيرة) ويذهب الى مقاصد اكثر نفعا للانسانية بدلا من هذا المقصد الذي لا خير منه الا الدمار والقتل.

وتحية لصديقنا واستاذنا المفكر الليبي الحر الاستاذ عبد الله شرف الدين، داعين الله ان يمده بالصحة والعافية والعمر الطويل ليقدم للبشرية مزيدا من هذه الافكار، التي تصب، في كل ما ينفع الانسان، وينفع الحياة، ويساهم في النماء والعمران، وتقوية التعاون بين البشر.

د. احمد ابراهيم الفقيه

أعلام ورموز ليبية، مقالات ليبيا المستقبل، متميزون